الحتمية والمفاجأة في زيارة السادات لاسرائيل

بقلم الدكتور سليمان بشير

المفاجأة - المعجزة

يبدو الفعل العربية والعالمية، المتفائلة منها والمتشائمة سواء، على كون عنصر المفاجأة اكثر ما يميز الحماس الذي سبق زيارة السادات لاسرائيل ... الذي نتج عنها من الناحية الاخرى، كما لوحظ ان ... على المحاولات المختلفة، بما فيها تلك ... على الشارع الوطني، لتقييم تلك "الزيارة المعجزة" ... من تلك المحاولات انها لا تزال تتردد بين ... على طرف تاريخي لم تعهده من قبل وبين ... التي تتارجح بدورها بين الدهشة ... والتشاؤل من الناحية الاخرى. ... وخيبة الامل في الامم المتحدة (... الدوري موقف الحلاف في الامم المتحدة (... الشارع الوطني العربي" لم يخد يستطيع ... فان الحليف".

... في حد ذاتها لعد اهم المقومات التي ... المفاجأة في صنع التاريخ. وهذا ... الذاتي الفذ في صنع التاريخ. ... العامل ذلك الصنع من لا شيء. وبالشكل ... ان يبدأ الاحداث في هذه الايام في المنطقة. ... مسرح الاحداث في وسائل الاعلام المصرية التاكيد ... ما تحاول وسائل الاعلام المصرية التاكيد ... السادات "بصانع القرارات" اما مراسلوا ... الشؤون العربية" في كل من ... "وخبراء الشؤون العربية" ودراساتهم ... الى تقاريرهم ... الاجتماعية والحضارية والنفسية ... "الابعاد ... (كذا!) هلال الثلاثين سنه الاخيره، فقد ... "جرأة السادات" غير قادرين على التجاوز ... التي من الممكن ان تحدثها تلك ... التوقعات "الازمة" وتطورها. والسادات، ذلك ... تلك "الازمة" بدوره في صبيحة اليوم التاسع ... يستفيق بدوره في سبعة وسبعين ومائة بعد الالف، ليجد ... لسنة سبع وسبعين "بزيت الجرأة" طالبة اليه ... قد مسحت جبينه ... "التكليات" والتوجه لاداء صلاة العيد في القدس، ... السحري الكفيل بتنفيس سبعين بالمئة من ... الاسرائيلي.

... العربي ... مسرحية مفاجأة السادات المعجزة وسط جو ... بآمال البشر والامهم. وعملية التلاعب نجحت ... الاخيره في الموازنة الدقيقة بين نفخ الامال ... الى شقين متكاملين لذات الشخصية ... يتنزل احدهما الاخر في عملية نزيف رهيبة ... التسليم اليائس بمقدرات المفاجأة. والتسليم ... في ذاته عن تكرار عملية النفخ والتنفيس ... التي خضعت لها هذه الشخصية على مدى ... الطويلة. نجماميرنا تفاجأ اليوم بزيارة السادات

... بدو لجل التحرير تحت راية سلاح النفط ... ١٩٧٣. وهي تفاجأ اليوم بالرفض الوطني ... اقل بدهاء وحكمة التردد الاردني الساعي ... نظر جميع الاطراف المعنية" تماما كما ... السوري في لبنان سنة ١٩٧٦ (والذي ... به في حربة الكلاميه ضد سوريا). ... بدورها الرفض الوطني السوري ... التي قام بها السادات في السنوات ١٩٧٤ - ... سيناء. كما ان مفاجأة التردد الاردني ذي الدرجة الاقل يختزل اليوم، وبدرجة اكبر، مفاجأة عدم تردد سليل هاشم بذبح اخوته المؤمنين من اتباع سيد هاشم يوم ايلول الاسود ١٩٧٠. ثم كانت مفاجأة "نكسة" ١٩٦٧ التي اختزلت "الانتصار العظيم" على العدوان الثلاثي سنة ١٩٥٦. ومفاجأة الوحده ١٩٥٨، وحل الوحدة ١٩٦١. والنكبة ١٩٤٨، والوعد(١٩١٧).... تماما "كما توجيء الذين من قبلكم".

هكذا عبئت الجماهير بشكل اوحى لها ان التحرير، حتى التحرير، سيكون مفاجأة. غير ان مرارة مفاجأة السادات تختلف هذه المره وبشكل نوعي. فاعتزال عمليات النفخ والتنفيس قد ارهق البالونات. والسادات يحاول الافادة من هذا الارهاق الذي شارك كبقية اشقائه العرب في صنعه على مدى الخمسين سنة الاخيرة. فاذاعة صوت العرب من القاهرة تذرف دموع الشفقة على المصريين الذين "ضحوا بلقمة العيش من اجل فلسطين". وعلى مصر التي "يكفيها شرفا انها ضحت بخيرة ابنائها من اجل فلسطين" ومن الناحية الاخرى فان السادات يؤكد على ان هؤلاء الفلسطينيين المرهقين الذين لايملكون السيطره على نشوة تمكنهم من الاتصال تلفونيا من عزه الى القاهره بشكل مباشر والتحدث الى اقربائهم "هم الفلسطينيون الحقيقيون"!

ومن اللعب بعواطف المرهقين ينتقل "صوت فلسطين من القاهرة" الى العبث بدين اولئك المرهقين كاشفا لهم (ولاول مرة منذ ثلاثين سنة) ان السلام هو دين الاسلام، وان الله اوصى في كتابه العزيز مرارا وتكرارا ان "ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن" (قران كريم) ومع تاكيد "صوت فلسطين من القاهرة" على ان الفتح في الاسلام لا يعني بالضرورة ان يتم بحد السيف بل من الممكن ان يأتي ايضا بالموعظة الحسنه والمثال الطيب، فانه يحرص كل الحرص على ان لا يفهم من ذلك ان التنفيس المرهق هو ما يدعو اليه بالفعل. وهو يؤكد على ذلك بقيامه ببث حلقات من تمثيلية "غصن الزيتون" التي تنفخ صلاح الدين القرن الثاني عشر الذي فاجأ الجميع بقراره التاريخي الجريء بعقد صلح مع الصليبيين ودخول القدس سلما، مع الايحاء المبطن بان صلاح الدين القرن العشرين يقوم اليوم بخطوة ذكيه ربما يهدف من ورائها الى اكثر من الصلح مع صليبيي القرن العشرين ..... كذا!!

عنصر المفاجأة والتاريخ

تلك هي العناصر الاولية التي تركب منطق شحن الجماهير وتنفيسها في عمليات التحرير المفاجيء والنكسات المفاجئة التي شهدها تاريخ الصراع في المنطقة على مدى نصف القرن الماضي. وتكرار المفاجات المرهقة (على مستوى النكسات) والغير مجديه (على مستوى البيانات رقم واحد) يحتم علينا اليوم الدخول في محاولة مجدده لتحليل مفاجأة ١٩٧٧ والمكان الذي ستحتله على مسار ذلك التاريخ بشكل يكسر طلاسم السحر والغيبية والفوق بشريه التي ميزت عملية صنع القرارات "المفاجئة" من ناحية، والارتقاء بتلك الدراسة الى مستوى الطرح العيني والملموس التلك العناصر وعلى المستوى الذي يستطيع معه فهم ذلك التاريخ والمشاركه في صنعه بانفسهم عن طريق تحديد مسؤولياتهم المباشره من منطلق تماسهم مع واقعهم من الناحية الاخرى. فالتاريخ لا يعرف المفاجات الخارقة، وتحديدا تلك التي تبدأ من لا شيء وتنتهي الى ما لا يستطيع البشر توقعه. فهو سجل لاعمال البشر التي تخضع لقوانين ومؤشرات تكون بدورها محكومة بمنطق سببي معين هو في متناول فهم وتقييم البشر الذين يستعمون تلك الاعمال. فالفهم العلمي والمنهجي للتاريخ يحتم الربط السببي للحوادث التاريخية بعلاقة عينية تضع تلك الحوادث في اطار معين تماما كما تفترض اجتماع البشر في اطر اجتماعية وسياسية تتخطى وجودهم الذاتي على المستوى المثالي المطلق وتكون بدورها خاضعة للدراسة والتتبع حسب تلك القوانين والمؤشرات ايضا.

هذه البديهيات تحتم دراسة الحدث التاريخي، على خلفية جذوره التي تمتد عميقا على ارضية بيئته الاجتماعي والسياسي من ناحية وعلى مستوى امتداداته ومضاعفاته من ناحية الظرف الجديد الذي يولده. ولعلمية التحول التاريخي منطق شمولي يجمع بين هذين البعدين في كيان حي فاعل ومتراكم ابدا تنتقل فيه الاحداث الى المستوى الارقى والاعقد. ثم اننا نشكل بفاعليتنا ووعينا احد العناصر الهامة التي تشارك في عملية النمو والارتقاء المتكاملة تلك. وهذه المشاركة تتراوح بين الاستغراق الذاتي الفاعل من ناحية ووعينا تلك الفعالية بابعادها الموضوعية - اي وعي الظرف الذي نحياه ويتخطانا في نفس الوقت.

وهذا الوعي هو ما يحصر عنصر المفاجأة في بعدها المدلول والنسبي فقط ويحولها الى منعطف وان زادت خطورته فان له دائما ما يفسره من ناحية ويعطيه قيمته التاريخية الخاصة والمحدودة من الناحية الاخرى. من ذلك يفهم ايضا كيف ان المفاجات الدراماتيكية تفقد مع المده اثر الصدمة. وبشكل تدريجي تاخذ ملامح الصوره وجزئياتها المركبة بالوضوح اكثر فاكثر. كما تتضح ايضا القوى والمضامن المستجدة التي تراكمت بشكل تدريجي لم نستطع الوقوف على دقائقه في حينه، وقفزت بنا الى تلك الحالة النوعيه الارقى التي حتمت اعادة صياغة البعد البنيوي - الشكلي للاطار الجديد الذي تطرح نفسها من خلاله.

وخلافا لما قام به السادات من "ضرب جميع التقاليد السياسية التي عرفها وأقرها التاريخ عرض الحائط" فان ذلك التاريخ يقوم بتحديد الدور الذي يلعبه البشر في صياغتهم له، جاعلا من "انبيائه" او "اذاذه" مجرد ادوات في يده، وذلك بعد ان يكون قد مهد الطريق امام قيامهم "بمعجزة كسر التقاليد" وذلك التمهيد يشكل بدوره حضورا اوليا ومتراكما للمضامين المستجدة التي تجعل من عملية "كسر الشكليات" مجرد حتمية (شكلية ايضا). ومن خرافة المفاجأة - المعجزة مجرد منعطف جديد تتخذ فيه تلك المضامين صيغة شكلية جديدة نوعا.

هنا تحديدا يكمن الفرق بين النظرة المادية - الجدلية والنظرة المثالية - المكيافيلية لعلاقة الشكل بالمضمون (اذا استعرنا كلمات السادات) في عملية صنع التاريخ. وقبل الدخول في محاولة لاعطاء تقييم تاريخي لزيارة السادات لاسرائيل على مستوى زخم المنعطف التاريخي الجديد الذي وجدت القضية الفلسطينية نفسها فيه على ضوء تلك الزيارة. ومن وجهة نظر مضامين القوى الاجتماعية والسياسية الفاعله في هذا المنعطف. لا بد من التحذير من ان عنصر المفاجأة هو ما يجمع بين اصحاب النظرة المثالية في محاولتهم تقييم تلك الزيارة. ومع حرصي على وحدة صف جميع القوى الوطنية التي تشارك في هذه الايام في عملية الصمود والتصدي لخطوة السادات الاستسلامية، وتاكيدي على الطابع الرفاقي البناء للنقد الذي اجهه لاجتهادات بعض هذه القوى، لا بد لي من الاشارة الى ان الشارع الوطني بشكل عام قد "فوجيء" بخيانة السادات بنفس القدر الذي "فوجئت" فيه وسائل الاعلام الغربية "بجرأته". المطلوب ليس "اعلان الحداد بمناسبة زيارة السادات لاسرائيل" بل اعطاء تقييم للعوامل والقوى التاريخية الفاعله التي مهدت لتلك الخيانة - الجرأة، ووضع استراتيجية جديده وواضحة تنطلق من فهم علمي واضح للظرف التاريخي الجديد الذي تمر فيه القضية الفلسطينية في هذه الفترة، مع التاكيد على ضرورة ايجاد اطر واساليب نضالية جديده تناسب ذلك الظرف الجديد. فاغتيال السادات من ناحية ومنحه جائزة نوبل للسلام من الناحية الاخرى لا يفسر من ميزان القوى الموضوعي في هذا الظرف الموضوعي الذي تعيشه المنطقة والذي تشكل زيارة السادات لاسرئيل تجسيدا ملموسا له.

يوسي سريد والاستيطان

ذكرت يديعوت احرونوت ان عضو الكنيست يوسي سريد ارسل في الاسبوع الماضي بمذكرة احتجاج شديدة اللهجة الى وزير الدفاع انتقد فيها قيام الرقابة "باستغلال صلاحياتها بشكل تعسفي" واشار سريد في مذكرته تلك ان الرقيب لا يسمح له بنشر الكتاب الذي كان قد وجهه الى رئيس لجنة الخارجية والامن التابعة للكنيست والذي كان قد ذكر فيه عدم السماح بنشر اية معلومات تتعلق بالاستيطان. واشار سريد الى ان لتلك المعلومات ليست هنالك اية قيمة امنية بل "ان طابعها سياسي واضح".

وكان سريد قد نبه في المذكره التي ارسلها الى رئيس لجنة الخارجية والامن الى القرار الذي ينص على تزويد تلك اللجنة بمعلومات حول عمليات الاستيطان بين حين واخر واضاف: "يمنع في الفتره الاخيره القيام بنشر هذه المعلومات بشكل تعسفي منظم. والاهم ان لجنة الخارجية والامن التابعة للكنيست تعرف اي شيء عن هذه الحقائق".

وفي اعقاب مذكرة سريد الى وزير الدفاع صرح موشه ارنس رئيس لجنة الخارجية والامن من ان اللجنة ستستدعي اريك شارون رئيس اللجنة الوزارية لتشون الاستيطان من اجل طلب ايضاحات منه بهذا الشان اما رد الاخير على ذلك فكان "ان نشر المعلومات شان عمليات الاستيطان من الممكن ان يجلب الضرر الفادح لاسرائيل".

ومن الناحية الاخرى توجه عضو الكنيست شموئيل طوليدانو (داش) الى يجال يدين وطالبه ببحث الموضوع على ضوء الوعد الذي اعطي لداش بموجب اتفاق الائتلاف الذي نص في حينه على عدم اتخاذ اية قرارات بشان الاستيطان دون الرجوع الى لجنة الخارجية والامن.

اما عل - همشمار فكانت قد علقت على ذلك بقولها: "ان الحكومة ستعمل كل ما في وسعها للحيلولة دون بحث موضوع الاستيطان في لجنة الخارجية والامن وتاجيله الى حين انتهاء زيارة فانس للمنطقة".

الاسرائيليون وتوقعات الحرب القادمه

نشوب في الاسبوع الماضي نتائج الاستبيان الذي قام به مركز الدراسات الاجتماعية التطبيقية التابع للجامعة العبرية حول امكانيات نشوب حرب جديده بين اسرائيل والدول العربية.

وقد اجري هذا الاستبيان في الفترة بين ٢٤ - ٢٦ تموز الماضي وضم عينة تمثل سكان المدن من اليهود البالغين في اسرائيل. وكان السؤال الذي وجه الى هؤلاء: "هل تظن ان حربا اخرى ستنشب بين اسرائيل والدول العربية في السنوات القادمة؟"

اما النتائج فكانت كالتالي: ٢ بالمائه اجابوا بأن حربا اخرى ستقع خلال الاسابيع او الاشهر القادمه. و ٢١ بالمائه توقعوا نشوب تلك الحرب خلال سنة او سنتين، و ٢١ بالمائه اجابوا بانها ستقع خلال ٣ - ٥ سنوات، و ١٦ بالمائه خلال ١٥ سنه، و ١٠ بالمائه خلال ١٠ سنوات وفقط ٢١ بالمائه منهم قالوا لا يتوقعون نشوب حرب اخرى من هذا النوع البته.